الفصل الثاني عشر

الميول ومراقبتها

الميول مظاهر الشوق الطبيعي تتجلى في الطفل إذا ترنح في اللعب، وأطلق العنان لحركاته الإرادية. وقد أنصف روسو إذ كان يقف من وراء حجاب ويراقب الأطفال من كثب في أوقات لهوهم، فيرى حركات غريبة يفعلونها، ويفتنون فيها، وترتاح نفوسهم إليها ولو أخذ منهم الجهاد مأخذه. تفقد ميولهم نحو الراحة واحتساء المشروبات، وتفقدها في الآراء والعقائد تجد لكل منهم شأنا خاصا يهواه ويتعصب له، ويقيم الدليل على رجحانه، نرى حولنا أناسا في طبعهم حذق لصناعة يغفل عنها المعلمون. ويحولونهم على الرغم من إرادتهم إلى غيرها فينهزمون. وقد تلجئ الضرورة شخصا إلى الكسب من مرتزق لا مجال فيه لمواهبه فيعمله كالمسخر، ويعيش به كئيبا، ولا يظهر عنده إقدام على إتقانه، فيتبادر إلى ذهن المشرفين عليه أنه ضعيف الذهن كليل القوة. وكم تمر بأمثاله الأيام والليالي في معترك الحياة، فإذا هذا الضعيف شاعر أديب، أو كاتب قدير، أو مؤلف بارع، أو مصور ماهر، أو عالم بالغ، أو خطيب قدير، وقد ورد في الأثر: « اعملوا فكل مُيسرٌ لِمَا خُلق له» (حديث نبوي شريف).

عرفت بين الطلبة زمن الدراسة الأولى من كان ينظم القصيدة التي تموج ألفاظها بالمعاني في بيت واحد، ولو كلف حل مسألة رياضية لفترت همته، فكان يخيل إلى المعلم أنه عاجز الفكر، والأيام وحدها أسفرت له عن شهرة رائعة في عالم الأدب.

ومنهم من كان ذهنه يخترق حجب الأحاجى الرياضية، وكلما صعبت مراميها ووسائل الوصول إلى حلها، زادها إمعانا وسعيا لكشف غوامضها، وكانت مع ذلك قريحته تخمد دون كتابة النثر وقرض الشعر، فيصفه المعلم بأنه ضعيف الذهن، مع أنه ممتاز فى تخصصه.

صحبت من الأمين رجلا وحقق لى الاختيار أنه حاد الذهن قوى العقل، إذا نطق استهوى عقول سامعيه بما يبتدعه من المعانى وما يزخرف من العبارات. هذا الرجل قد شغلته المحن، وضايقته أسباب المعيشة، ولو صادفته عناية المربين لأنجبت أديبا قديرا.

وخبرت آخر حرمته يد الإهمال ثمرة التعليم الصحيح، وكان لفرط ذكائه إذا عرضت أمور تستدعى دقة الحساب زاولها بفكره وكان جوابه صحيحا صائبا، وما يدرينا أن يكون هذا الشخص رياضيا منقطع النظير، لو وفق إلى مرشد بصير ومن يعتنى به.

هكذا اقتضت إرادة الله تعالى أن يوزع النبوغ بين الناس لتتأكد الروابط الودية بينهم، وهذا سر من أسرار الحياة. والنبوغ كالنار الخامدة إن لم تجد من يشعلها فلا فائدة منها وستظل هامدة إلى أن تصبح رمادا تذروه الرياح.

ليس من ينكر فضل الحريرى صاحب المقامات المشهورة، فإن صيته ذاع حتى دعى إلى رياسة ديوان الإنشاء فى بغداد. فلما حضر إليه كلف أن يكتب فى موضوع محدود فلم يجر لسانه ولا قلمه فى قصيرة أو طويلة. ذلك لأن ذهنه مطبوع على نوع روائى معين لا يشق له فيه غبار، فليس بعجيب أن يفشل فى كتابة ما لم يمرن فيه نفسه من قبل، وليس لديه نبوغ فيه. وكذلك الأديب المبرد وهو إمام فى حل مشكلات اللغة العربية، وله قدرة منقطعة النظير على فهم القرآن والأحاديث النبوية، كان يخطر له الخاطر فتعييه الكتابة فيه. وقد اعترف أن عرضت له حاجة إلى بعض إخوانه وأراد أن يكتب إليه فأحجم. ذلك أنه رتب المعنى فى نفسه، ثم حاول صوغه بألفاظ تليق به فلم يستطع. فما أشبهه بحجر المسن يشحذ ولا يقطع!

هذا وقارئ التاريخ يستطيع أن يستشهد بكثير من أمثال هؤلاء الذين منحتهم الفطرة مواهب بديعة فى ريعان الشباب، فحفظتها لهم وديعة، وسترتها عن العبث بها، حتى سنحت الفرص فزكت وظهرت بشائرها.

روى أن عبد الله بن الزبير وهو صبى كان يلعب مع إخوانه، فمر بهم رجل ففزعوا منه، أما عبد الله فتقهقر واستنهض عزيمتهم بقوله: يا صبيان اجعلونى أميركم وشدوا بنا عليه ففعلوا. كذلك مر به عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الصبيان ففروا منه، أما هو فوقف غير هياب ولا وجل، فسأله عمر عن عدم فراره معهم، فأجاب: " إنى لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك ". هذه الشجاعة بدت من عبد الله وهو صغير، فنمت فيه وهو كبير. وكان من أمره أن استقل بحكم المدينة، وقامت بينه وبين الحجاج حروب دموية انتهت بقتله. وروى عن سير هرسل أن أباه علمه الموسيقى فى إبان صباه فعاش بها، ولكن ميول الشباب نهضت به فصار فلكيا كشف " أورانوس " من بين الكواكب السيارة، واستدل على وجود كلف الشمس.

كذلك حدثنا التاريخ عن لينوس أن أباه زج به إلى المدرسة ليتعلم اللاتينية، ثم إلى مصنع ليكون إسكافيا، فلم يكن إلا كعامة الناس، ولحسن الحظ لقى من تفرس فى طبعه ميلا لعلمى النبات والأعضاء فسدده إليهما، فبرقت فيه بروق النبوغ، وأصبح فخرا لأمته وللعالم. ولنا من سيرة نابليون بونابرت شاهد وعبرة، فإنه برع فى الرياضيات فى غضون حياته الدراسية، ولضعفه فى الأدب وفى اللاتينية التى كانت شعار العلم فى ذلك العصر، وسمه المعلمون بالضعف وحكموا على عقله بالجمود. فكم بعدت أحكامهم عن جادة الصواب. وكم شغلتهم شؤونهم عن مراقبة مميزاته الكامنة فيه. وكم نطقت فعاله التى كان يزاولها وقت فراغه بما ركز فى فطرته من الميول.

قال المؤرخون: إن عاصفة باردة ثارت فى الجو جمدت ماء المطر فنزل ثلجا غطى

وجه البسيطة وسد المنافذ، فاستعان وهو صبي برفقائه على أن يحفر الخنادق ويقيم الحصون، ثم قسمهم طائفتين على تخاصمهم، وأقام نفسه قائدا لحركة الهجوم، واستمر النضال والجلاد خمسة عشر يوما حتى ذاب الثلج، فاندكت الحصون وصارت قاعا صفصفا، فرجع هو ورفقاؤه إلى المدرسة، طاوين فى صدرهم تلك النزعة الحربية حتى جاء أوانها، فنضجت ثمرها، وفتحت لها الأيام صدرا رحيبا.

وأعلم أن الطفل وقت فراغه تستولى عليه ميوله وتقود زمام حركاته، إلى تنفيذ رغباته، حتى إنه ليذهب إلى الشارع، ويشارك أبناء السبيل فى شؤون اللعب، مخالفا نصائح أبويه، وربما لبّى أمرهما قسرا، ثم يشاغلهما ويعود إلى نزعته كالخيزران. ونرى التلميذ يدخل بمحض إرادة أبيه قسم العلوم من المدرسة الثانوية فيخفق، لأن أباه تصرف فى هواه جهلا منه وانصرافا عن المصلحة، ثم يرجع التلميذ فيتخير لنفسه قسم الآداب فينجح. هذه الميول وكل امرئ يضرب فيها بسهم مثلها كالمعطف يتعهده الصانع بترتيب وتنسيق يلائم الجسم، وإذا لبسه شخص آخر لا يوافقه.

وقد نجح مهرة المعلمين فى اتخاذ المشوقات سبيلا يستحثون بها الميول الجامحة، فيحببون القراءة إلى الطفل بما يعرضون عليه من الكتب ذات الصور المزخرفة الجذابة، فيهيم حبا بالقراءة. ويحببون إليه قراءة سير الرحالين، وأوصاف ما جمعوه من علم نافع، وأدب ناضج، وثروة طائلة، ومستكشفات رائعة. فكم قرأ ليفنجستون أسفار الأسفار فى إبان صباه، وهو عامل فى مصنع نسيج، ولفرط حبه لها ملأ بقراءتها أوقات الفراغ، وكثيرا من أوقات العمل، حتى أصبح رحالة ذائع الصيت.